من بغداد ... الى كركوك

وداع بغـــداد !

للأستاذ علي الطنطاوي

الوداع يا بغداد ...

يا بلد المنصور والرشيد، والنعمان وأحمد، والكرخي والجنيد، وأبي نواس والعباس، وبخارق وإسحق، ومطيع وحماد ...

يا منزل القواد والخلفاء، والمحدثين والفقهاء، والزهاد والأتقياء، والمغنين والشعراء، والمجّان والظرفاء ...

يا مثابة العلم والتقى، واللهو والفسوق، والمجد والغنى، والفقر والخمول ... يا دنيا فيها من كل شيء

الوداع يا دار السلام، ويا موئل العربية، ويا قبة الإسلام

يا بلداً أحببته قبل أن أراه، وأحببته بعد ما رأيته ... لقد عشت فيك زماناً مرّ كلمح النائم، صحوت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق، فلم أجد منه في يدي إلا لذع الذكرى

وهل تخلف الأحلامُ يا بَلدُ إلا الأسى والآلام ؟

ولكني على ذلك راضٍ راضٌ ... فالوداع يا بغداد واسلمي على الزمان !

* * *

ودعتها والسيارة تشتد بي إلى المحطة تسلك إليها شوارع ذات بهجة وجمال، شبهتها (والمحطة غايتها) بليالي الحبّ كلها أنس وحلاوة، ولكن نهايتها وحشة الوحدة ومرارة الفراق. وعاينت الوداع، فأيقنت أني مفارق بغداد عما قليل، وأني سأتلفت فلا أرى رياضها ولا أرباضها، ولا أبصر دجلتها ولا نخيلها، فجرى لساني بقول الأول (وإن من الأقوال ما لا تبلى جدّته ولا يمضي زمانه):

أقول لصاحبي والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

شهور قد (مضين) وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار

فأما ليلهن فخير ليل ... وأطيب ما يكون من النهار

وجعلت أذكر كم ودعت من أحباب، وكم فارقت من منازل، وكم قطعت قلبي قطعاً نثرتها في أرض الله الواسعة التي لا تحفظ ذكرى، ولا ترثي لبائس، ورأيتني لا أكاد أستقر في بلد حتى تطرحني النوى في آخر، كنبتة لا تكاد ترسخ في تربة وتمد فيها جذورها حتى تقلع وتنقل إلى تربة أخرى ... ورأيت أني دخلت بغداد يوم لم يكن قد جاءها أحد من أصحابي فلبثت فيها وحيداً مستوحشاً، لا أعرف منها إلا المسجد، وما كان لمسلم أن يرى نفسه غريباً في بلد فيه مسجد، ولكنها العاطفة الضعيفة المتهافتة، فلما ألفتها وصارت بلدي، وغدا لها في قلبي مكان نقيت عنها ...

دخلنا كارهين لها فلما ... ألفناها خرجنا (مكرهينا)

وفكرت في أمري متى ألقى رحلي، ومتى أحل حقائبي ؟ وهل كتب عليّ أن أطوّف أبداً في البلاد، وأعيش غريباً وحيداً بعيداً عن أهلي وكتبي وصحبي ؟ وهاجت في رأسي الخواطر السود وماجت حتى لقد رأيت الشوارع الخالية بالزهر صحراء مجدبة، ورأيت شعاع القمر المضيء أظلم خابياً ...

ومن طوّف تطواف، وأقبل مثلي على بلاد ما لها في نفسه صورة، ولا له فيها صديق، وفارق أهلاً إليه أحبة، وصحباً عليه كراماً، وكانت حاله كحالي، عرف صدق مقالي !

* * *

وصفّر القطار وسار، وطفقت ألوّح بمنديلي لصديقيّ الأثيرين أنور وحسن حتى داراهما عني الظلام، فنظرت حولي فإذا أنا وحيد في العربة الفخمة، لا أنيس ولا جليس، فكرّ فكري راجعاً إلى بغداد ...

بغداد، يا مهد الحب، يولد الحب على جسرك الذي تحرسه (العيون)، وينمو في زوارقك ذات الأجنحة البيض التي تخفق فتخفق قلوب راكبيها، ويشب في كرخك وتحت ظلال نخيلك

فتشوا كم تحت الثرى من بقايا القلوب التي حطمها بسهام (العيون) هذا المخلوق الجبار الذي ولد على الجسر شابا، ونما في الزورق، واكتهل في الكرخ، ثم لم يمت لأنه من أبناء الخلود

سلوا أرض بغداد: أعندها خبر من شهداء الغرام ؟

سلوا جوّ بغداد: أين النغمات العذاب التي عطرت نسيمه بعطر الجنة، فهزت قلوباً، وهاجت عواطف، وأضحكت وأبكت، وأماتت وأحيت ؟ هل أضعت ويحك هذه الثروة التي لا تعوّض ؟

سلوا الجسر ... يا (جسر بغداد) إن ما بقي من حديثك قد ملأ كتب الأدب، حتى لم يعرف الناس سوقاً للعواطف والأفكار والعبر أكبر من جسر بغداد، فأين سائر أخبارك ؟

كم ضممت ذراعيك على عشيقين فتما بينهما بلذة الحب ! وكم تركت حبيباً ينتظر فلا يرجع بعد الانتظار إلا بالخيبة والأسى ! وكم عطفت على بائس منكود ، وأعرضت عن منكود بائس ، فأريت الأول من مشاهد الحياة ما هوّن عليه ما هو فيه ، وزدت الثانى بؤساً ونكداً ؟ وكم وعيت من أسرار الحب والبغض والفرح والحزن ، والغنى والفقر ، والعزة والذل ، وكل ما تحتوى الحياة وتشمل النفس من ألوان ؟ كم رأيت من حصاد الأدمغة وثمرات القلوب ؟ كم مدت تحت أقدام خليفة كانت تصغى له الدنيا إذا قال لأنه ينطق بلسان محمد ، وقائد كانت تخضع له الأمم إذا سار لأنه يلوّح بسيف محمد ؟

يا (جسر غازى) الجديد ، الهائل العظيم ، أعندك نبأ من ذلك الجسر الذى كان عالماً من العوالم ؟ والذى كان سُرّة الدنيا وقطب رحاها ؟ وكان للجدّ إذا جدّ الجدّ ، وللهزل إذا جاز الهزل ، فحوى المجد من أساسه ، وجمع المتعة من أطرافها ؟

* * *

وهذه المنارة المنحنية المائلة فى (سوق الغزل) تنظر بعينى أم ثكلى ... سلوها أين مسجدها الذى كان يضيق على سعته بالمصلين ، حتى تمتد الصفوف إلى الشارع ثم تتتالى حتى تبلغ النهر[1] ؟ أين أولئك العلماء الذين أترعوا الدنيا علما ، وملأوا آفاق الأرض نوراً وهدى ؟ أين مواكب الخلفاء حيث ...

الخيل تصهل والفوارس تدّعى والبيض تلمع والأسنّة تزهر
ومشيهم فى رحاب بيت الله ...
...مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر

أين فرسان المنابر وأبطالها ؟ أين جبران المحاريب وجلاّسها ؟ أين ... أين ... ؟

يا أسفى ! لقد سرق المسجد ، وهدم المنبر ، وضاع المحراب ، ولم تحفظ الحجارة يا بغداد مآثرك ومصانعك ، ولاوعت الأرض ذكريات حبك ، ولا أبقى الجوّ رنات عيدانك ... أفلا حفظتها قلوب أقسم أصحابها أنهم ذاكرو عهدك وأنهم مرجعو مجدك ؟

فأين مسجد بغداد الجامع يا مديرية الأوقاف ؟ أين المسجد يا إدارة الآثار ؟ أين المسجد يا من تخذتم المسجد بيوتاً ودكاكين وتركتم المنارة منحنية عليه تبكى !

أين المدرسة النظامية يا من أقمتم على أنقاضها سوق الشورجة لتبيعوا فيه البصل والثوم — وقد كانت تباع فيها حيوات العلماء وعصارات عقولهم وقلوبهم ؟...

لا تحزنى يا بغداد واصبرى فإن كل شىء يعود ما بقى فى القلب إيمان ، وفى الفم لسان ، وفى اليد سنان

* * *

وتلفت ورائى فإذا بغداد قد اختفت وراء الأفق ... وغابت مسارب الأعظمية التى تحاذى النهر ، تتكشف تارة فتضىء ثم تختفى فى ظلال النخيل كشاعر منفرد يتأمل ، أو محب معتزل يناجى طيف الحبيب ، ويسامر ليالى الوصال التى تلوح له صورها ... والنهر يطلع عليها مرة بصفحته البيضاء المشرقة التى تشبه أمنية بدت لحالم ، ثم يحجبه عنها النخيل ، ويمحوه الظلام كما تمحو الحياة بواقعها الأحلام وتطمس صور الأمانى ... وغابت شوارع الصالحية ذات الفتنة والجلال وغابت المآذن الرشيقة ، وغابت القباب ... وبقيت أنا والماضى !

هذا الماضى الذى طالما قاسيت منه ، وطالما كابدت ... ثم كلما أوغلت به انحداراً فى أعماق نفسى ودفنته فى هوة الذكرى وقلت مات ، عاد حياً كاملاً تثيره نغمة وتهيجه صورة ويبعثه بيت من الشعر ... فيبعث بحياته آلامى ...

غابت بغداد ، فسلام على بغداد ، واشهدوا أنه ما بعد دمشق بلد أحب إلىّ من بغداد ، ولا بعد العتابا نغمة أوقع فى قلبى من الأبوذية ، ولا بعد الحور شجر أجمل فى عينى من النخيل ، ولا بعد بردى نهر أعز على نفسى من دجلة ...

أستغفر الله ! إلا حرم الله ومدينة نبيه ، فهما والله أحب البلاد إلىّ ، وماؤها ألذ الماء فى فمى ، وشجرها أبهى الشجر فى بصرى ...

السلام عليك يا بغداد ولو نفيتنى عنك إلى كركوك ، وعلى ساكنيك السلام ...

(ثانوية كركوك) على الطنطاوى

(١) كذلك قال التاريخ